بانفسهم ومراكزهم ومسؤولياتهم . كل ما تحتاجه منا هو ان تدعوهم الى العشاء وتغرقهم بكرمك ولا سيما كرمك بالشمبانيا والويسكي . وما عليك الا ان تستمع اليهم يتحدثون عن كل ما يهم الاستخبارات الاسرائيلية ان تسمعه . طريقة بسيطة كان من الممكن لها ان تبقي لوتز في القاهرة حتى الان لولا جهاز اللاسلكي اللعين الذي كشفت صوته السلطات (لوتز يقول ان السوفييت هم الذين كشفوه) ، فكانت النهاية ، السجن المؤبد . ولكن حظ لوتز كما يقول المؤلف ينتصر دائما . وانتصر حظه هذه المرة باندلاع حرب يونيو وحصول اسرائيل على الاف الاسرى الذين استبدلتهم بجاسوسها المدلل .

وكانت المرة السالفة التي انتصر فيها حظ لوتز في نجاته من الاعدام . فالامر لا نفهمه ولم يفهمه هو ، اثرت النيابة العامة غض النظر عن احتمال كونه اسرائيليا وقررت محاكمته على اعتباره المانيا ، مما خفف من جرمه . ويعطينا المؤلف تفسيرات مختلفة لهذا الموقف من النيابة . والقارىء الذي يريد تصديق وكلاء الاستخبارات حر في تصديقه . بيد ان ما يعنينا من هذه النقطة هو تواطىء المعسكر الغربي مع اسرائيل في اتفه المسائل واخطرها . لقد أدى اعتقال لوتز الى حملة عنيفة من القاهرة على المانيا الغربية وتقبلت الحكومة الالمانية هذه الحملة صابرة دون ان تلجأ الى المخلص البسيط بمكاشفة القاهرة بان لوتز اسرائيلي وليس المانيا . ويقول المؤلف بان مجلة دى شترن الالمانية اعدت تقريرا كاملا معززا بالصور والوثائق عن حياة لوتز وجنسيته الحقيقية . ولكن ضابطا من الاستخبارات الاسرائيلية ذهب الى المجلة وتسبب في حفظ التقرير . كما عملت الحكومة الالمانية على التستر على لوتز ، بناء على طلب من الاستخبارات الاسرائيلية ايضا ، وامرت سفارتها في القاهرة بتبني قضيته وتمثيلها في المحكمة . وظل لوتز يتلقى شتى الامتيازات في السجن نتيجة تدخلات القنصلية الالمانية .

ان ما استوقفني طويلا في الكتاب هو نزعة التحامل العنصري التي ابداها المؤلف . لقد قضى نحو اربعة اعوام في مصر اغرقه المصريون خلالها بودهم وعطفهم واكرامهم ومساعدتهم ، وفي اكثر الاحيان على حساب مصر وقوانينها . ولا يكاد يروى قصة الا وواجهتنا فيها دمائة مصر وطيبتها ، طيبتها التي بدونها لم يكن بمستطاع لوتز ان يقوم بنشاطه . ولكنه لم يذكر طوال مذكراته احدا من معارفه واصدقائه المصريين بكلمة طيبة واحدة . الكلمة الدارجة على لسانه في وصف اي مصري هي انه « ابن حرام » . من لم ينفذ ارادته ووضع مصاعب في طريقه هو ابن حرام ، ومن نفذ ارادته وحقق له مآربه هو اهبل وغبي . ولا يستطيع القارىء ان يتفادى القشعريرة عندما يفكر بان هذه الذهنية هي الذهنية التي تصبغ سواد المجتمع الاسرائيلي واسسه الاخلاقية .

ونحن نتفق مع الكاتب عندما يقول بأن الجاسوسية مهنة قاسية تستغل الصديق والقريب . لا احد يلومه على قيامه بواجبه واستغلاله ضحاياه . ولكن الانسان يتوقع منه كلمة رقيقة او شعورا بالاسف عن العشرات من اصدقائه الذين خدموه طوال اقامته في القاهرة قبل ان يلقوا نفس المصير في السجن بسببه ودون علم منهم او ادراك . حتى خادمه الذي اثبت اخلاصه له واوقع نفسه في براثن الويل بمنعه البوليس من تفتيش الفلا لم يتلق منه غير السب والمذمة . ولكن المؤلف اعرب عن عطفه عليه فقط عندما اراد ان يستغل المناسبة ليذكر القارىء بان البوليس المصري يكيل الويل للسجناء كما فعل مع خادمه .

ولعل ما قاله الناقد الانكليزي ستانلي مايس في هذا الصدد جدير بالاستشهاد : « يدعي لوتز انه لا يكره العرب ولكن من الواضح انه يحتقرهم . كل ذلك بينما نجد كافة المصريين تقريبا ممن وصفهم في كتابه انبل نفسا منه هو » .

ولفغانغ لوتز انسان لم يعد يستطيع ان يجد عذرا لانسان خارج اسرائيل . ولكننا قد نستطيع ان نجد له عذرا داخل اسرائيل . انها مهنة الجاسوسية التي لا يمسكها انسان الا «وفي يده من نتنها عود». انها المهنة التي تعلم صاحبها ان يتشكك في نوايا اي انسان ويتجاهل اسمى القيم الانسانية حتى يفقد في الاخير انسانيته هو .

خالد القشطيني